بين هينى وجيتى

٢

فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر كانت شهرة جيتى قد تجاوزت ألمانيا وأوروبا إلى سائر نواحى العالم ، وبلغت الذروة ، وكان جيتى نفسه قد نضجت تجاربه ، واكتملت عبقريته ، وأصبح شاعر العصر وأديبه وحكيمه الذى يشار إليه بالبنان ، ويحج إليه القصاد فى ويمار ليشاهدوا هذا المارد الجبار ، ويملأوا عيونهم بالنظر إليه ، وآذانهم من الاستماع إلى أحاديثه الخصبة الموحية قبل أن يطويه الموت ويضاف اسمه إلى سجل الخالدين .

وكان هينريك هينى حينذاك شاباً فى مقتبل العمر ، وعنفوان الشباب ، قوى العاطفة ، مرهف الإحساس ، يلمع فى عينيه بريق الذكاء ، وترف على جبينه لمحات العبقرية ، وقد أخذ يشق طريقه إلى الشهرة والمجد الأدبى .

وقد استرعت مجموعة الأشعار الغنائية التى أذاعها أنظار النقاد والقراء ، ومتذوقى الأدب اللباب ، فأخذوا يرددون أن نجماً قد لاح فى سماء الأدب الألمانى .

وكان شباب الشعب الألمانى فى تلك الفترة قد أخذ يتنكر للشاعر العظيم والمربى الكبير منذ بدأت الحروب النابليونية ، واتهموه بفتور العاطفة القومية وضعف الوطنية ، وتطرف بعضهم فرموه بعدم الاكتراث والخيانة ، وأغراهم ذلك بالشك فى أدبه ، وانتقاص عبقريته ، والنيل من مكانته ، ووجه إليه

بعض النقاد نقدات مسمومة وحملات شعواء ، وأولع فريق آخر من النقاد بالموازنة بينه وبين صديقه وضريبه فى الأدب الألمانى شلر ، وفضلوا عليه شلر ، وأثنوا على مؤلفاته ، وأكبروا آياته الفنية على حساب انتقاص آثار جيتى وطرفه الأدبية .

والجميل أن انقسام الناس إلى معسكرين يتعصب أحدهما لشلر ويسرف فى مدحه ، ويتعصب المعسكر الآخر لجيتى ويبالغ فى الإشادة بأدبه لم يفسد ما كان بين الصديقين من وثيق العلاقات ، وعميق التقدير ، وحسن التفاهم والتعاون ، وقد كانت صداقتهما من الصداقات النادرة القليلة النظير فى تاريخ الأدب .

وكان هينى الشاب الشاعر الطموح المشتعل حماسة الحاد اللسان اللاذع السخرية يشارك شباب عصره ضيقهم بجيتى ، وثورتهم به ، وتمردهم عليه ، وكان يزيد هذه الكراهة اتقاداً حسد الشبان الطامحين من الشعراء والأدباء لرجال الأدب الشيوخ الذين توطدت مكانتهم ، وعلت شهرتهم .

ويغلب على الشبان الطموحين فى مثل هذه الأحوال الظن بأن هؤلاء الشيوخ قد استأثروا بالشهرة ، وحازوا المجد ، وأقاموا العقبات فى سبيلهم . فلابد من هدمهم وإزالتهم من الطريق ليظهروا ويشتهروا وينالوا حقهم ، ويظفروا بالمكانة الملائمة لنبوغهم وتفوقهم ، وهينى نفسه قد اعترف فى صراحته المحببة بأن الحسد كان من أسباب حملته على جيتى وكراهته له !

وهينى رجل ساخر فكه لعوب بأطراف الكلام ، ولكنى مع ذلك لا أرى داعياً لرفض ما ذكره عن نفسه ، فقد قال فى بحثه الانتقادى الممتع عن المدرسة

الرومانسية[١] « من الصعب أن أتعرف الأسباب الخاصة التى بعثت كل فرد على أن يعلن كراهته لجيتى ، ولكنى أعرف الأسباب السرية الخفية لأحد هؤلاء الأشخاص ، ولما كان هذا الشخص هو أنا نفسى فإنى أعترف صراحة أننى كنت أحسد جيتى » .

وفى ذلك الوقت كان يقيم فى برلين فارنهاجن فون إنس مع زوجته راحيل ، وكان صالون هذه الأسرة لمدة سنوات ملتقى كبار المفكرين والشعراء والنقاد وكان ممن يغشونه الفيلسوف هجل والمفكر شليرماخر والروائى البارون دى لاموت فوكيه والبحاثة العالم همبولدت وغيرهم ، وقدم هينى أحد أصدقائه لفارنهاجن ، وفى بادىء الأمر اعتاق الحياء هينى فى حضرة هؤلاء الأعلام الأكبر منه سنًا ، والأرسخ منه قدماً ، والأبعد منه شهرة ، والأسمى مكانة ، ولكن السيدة راحيل كانت امرأة مستنيرة مثقفة سامية الروح ، جمة العطف ، وقد استطاعت بوداعتها ولباقتها أن تروض جماح الشاب الثائر هينى ، وتؤنس وحشته وتحل عقدة لسانه .

وقد اشتهرت راحيل بإعجابها الشديد بجيتى وإكبارها له ودفاعها الدائم عنه ، وكانت تحاول أن تحمل الناس جميعهم على مشاركتها فى هذا الإعجاب ، وقدرأت جيتى أول مرة فى مدينة فرانكفورت ، وكانت تقلة عربة ، فلما طالعها محياه كادت تفقد صوابها ، واندفعت تجرى خلف العربة وهى تصيح « إنه جيتى ! إنه جيتى ! » فنظر جيتى حوله ، وسره تحمس هذه المرأة الشابة له ، وابتسم لها ابتسامة لطيفة رقيقة ، وبعد هذه الحادثة زارها فى منزلها .

وحدثت هينى عن ذكرى هذه الزيارة ، وقد غلبها الحياء ، فقالت « كان

---

(١) راجع صفحة ١١٢ من كتاب « نثر هينى » .

The Prose Writings of Heinrich Heine.

كل شيء فى ذلك الصباح يعمل على معاكستى ، فقد استيقظت من النوم متأخرة ، وفى الساعة التاسعة كنت لا أزال أمام المرآة أصلح من شأنى ، وجاء الخادم ، وأعلن أن أحد السادة يريد أن يتحدث إلى ، وقلت لنفسى «من عسى أن يكون هذا الزائر ؟» وأرسلت دوراً لتعرف جلية الأمر ، فعادت إلى فى التو واللحظة حاملة بطاقة جيتى ، وقالت «أخبرنى السيد أنه يستطيع الإنتظار» فقلت لها «أدخليه على الفور ! » .

وأسرعت وتلفعت بمئزر ، وهكذا تقدمت للقاء جيتى ، ولا أزال حتى اليوم أستشعر الخجل لذلك ، ولكنى أثرت الاستهداف لعدم ارتياحه على أن أتركه منتظراً ، فليس من اللائق أن نجعل جيتى ينتظر ! وقد ارتبكت ارتباكاً شديداً ، وغاب عنى أن أعتذر له عن الملبس الذى لقيته به وقلت له إنى أشكر لك حضورك ، وتكلمنا فى أشياء تافهة ، وبطبيعة الحال كانت هناك آلاف الأشياء التى كنت أريد أن أتحدث إليه عنها ، ولكن هكذا حالة الإنسان حينما يلقى الذى يعبده ويقدسه ويحبه ويجله » .

وكان هينى يستمع إلى ثنائها على جيتى وتنويهها بأدبه بشيء من الضيق والغيرة وكان يجد صعوبة فى أن يحنى رأسه إزاء تفوق جيتى وامتيازه ، وغلب على اعتقاده أن راحيل تبالغ فى تمجيده وإطراء مزاياه ، وتعطيه أكثر من حقه .

وقد اجترأ على مخالفتها فى ذلك ، فقالت راحيل لخاصة أصدقائها «إن هينى لم يبلغ بعد السن التى يستطيع فيها تقدير جيتى ، ولابد أن يتضح الإنسان ويهذب ويصقل ويثقف نفسه لكى يستطيع تقدير حكمة شاعر ويمار ، ويقدر اتزانه واتساع آفاق تفكيره الذى يشمل العالم جميعه ، وذلك برغم ما فى هذا الاتزان واتساع الأفاق من متناقضات» .

وكان إعجاب راحيل بجيتى المربى أكثر من إعجابها بجيتى الشاعر ، وكان

هينى يحترم راحيل ويعجب بها ، ويقدر عطفها عليه ، ولكنه مع ذلك يرى أن من حقه أن يثور ويطاوع أهواءه ونوازعه ، ويقتحم عالم الفوضى والقلق والاضطراب قبل أن يصل إلى الاتزان والتجاوب .

وكان هينى يستمتع فى صالونها بالحرية التامة ، ويعارض ويجادل ويناضل عن آرائه فى قوة وعنف ، وكان صالونها من العوامل الهامة فى تكوين أفكاره وإتجاهاته : ففى هذا الصالون استمع إلى هجل وهو يشرح آراءه فى فلسفة التاريخ ، واسترعت راحيل نظره إلى جهود سانت سيمون وأنصاره ، فاقبل على دراسة مشكلات القرن التاسع عشر الاجتماعية ، وعنى بها طوال حياته .

وقد كانت حياة هينى ملأى بسوء التفاهم والمعارك والخلافات والدسائس والعدوان ، ولكن علاقته بأسرة فرنهاجن ظلت الناحية المشرقة فى حياته التى لا تغشاها السحب ولا يخيم عليها الظلام .

وفى مدينة كوتنجن عرف هينى إكرمان الذى أصبح فيما بعد موضع ثقة جيتى ، والذى سجل أحاديث جيتى فى الكتاب القيم المشهور السابق الحديث عنه ، وكان إكرمان قد بدأ يعرف بحبه لجيتى وشدة إعجابه بعبقريته ، وقد نقل[1] «فرانسوا فيتو» مترجم حياة هينى مما زعم أنه مذكرات إكرمان غير المطبوعة ما يستفاد منه أن إكرمان سجل فى هذه المذكرات يوم ٢ أغسطس سنة ١٨٢٤ ما يأتى : —

«يحاول هينى أن يظهر بمظهر الرجل الغامض الشأن ، فقد قال عرضا إنه زار ويمار ، فأجبته : أفى الحق أنك زرت ويمار ؟ .

فتظاهر بأنه لم يسمع ، وأخذ يتكلم فى موضوعات أخرى ، وبعد نصف ساعة عاد إلى الموضوع نفسه وقال إنه زار ويمار وإن الجعة هناك جيدة .

---

(١) من صفحة ٩٩ إلى صفحة ١٠٩ من كتابه عن هينى .

فسأله سبتا : الجعة وحدها !

فأجاب وقد غشيته غاشية من الذهول «وكذلك اللحم المشوى» .

فقال له إكرمان وقد نفد صبره «أمسك عن هذا السخف ، وحدثنا هل رأيت جيتى ؟» .

ولم يرد هينى على هذا السؤال فى ذلك اليوم ، وترك إكرمان وأصحابه فى حيرة من أمره .

وفى لقاء آخر حدثه هينى عن لقائه لجيتى ، وأطلعه على هذه الرسالة التى وجهها إليه قبل اللقاء ، وهو يقول فيها «يا صاحب السعادة – إنى أسألك أن تتيح لى حظوة لقائك بضع دقائق ، ولا أريد أن أثقل عليك ، وكل ما أوده هو أن أقبل يدك وأنصرف ، وأسمى هينريك هينى ، وقد ولدت فى أرض الراين وقد عشت إلى وقت غير بعيد فى جو تنجن ، وعشت بعد ذلك سنوات عدة فى برلين حيث تشرفت بمعرفة أصدقائك القدماء قلد وأسرة فارنهاجن وغيرهما ، وفى كل يوم كان يزداد حبى لك ، وأنا نفسى شاعر ، وقد اجترأت منذ ثلاث سنوات على أن أرسل إليك مأساة ومعها ديوان شعر ، وفضلا عن ذلك فإننى رجل مريض وقد ذهبت لقضاء ثلاثة أسابيع فى الهارز طلباً للراحة ، وهناك استولت على رغبة شديدة فى أن احج إلى ويمار لأقدم احتراماتى لجيتى ، وقد فعلت فعل الحجيج فجئتك سعيًا على قدمى ، وقد بيض ثيابى غبار الطريق ، والآن أسألك أن تحقق رغبتى وتسمح لى باللقاء» .

واسترسل هينى فى حديثه مع إكرمان وقال إن جيتى كان عذباً رقيقاً لطيفاً فى لقائه ، ولكنه لم يكن إنساناً ، وهكذا كان الرجل الذى حاولت أن أكبره وأجله برغم ما بيننا من الاختلافات وتفاوت المشارب ، ولقد أصبت بخيبة أمل شديدة ، وقد سألنى عما أعمله ، فقلت له إنى مكب على موضوع فاوست ،

فتغير وجهه وتجهم وقال لى فى برود «ماذا يستبقيك يا هر هينى فى ويمار؟» فأجبته وقد انحنيت له مودعا ! لا شىء بعد هذه الزيارة» .

والظاهر أن هينى أراد أن يضايق جيتى وينتقم منه لفتوره وتعاليه ، بادعاء أنه سيتناول موضوع فاوست من جديد وينافس جيتى بالكتابة فيه .

وقد كتب هينى ضمن رسالته لأحد أصدقائه المقربين عن لقائه لجيتى[1] «جيتى وأنا طبيعتان مختلفتان متناقضتان ، فهو فى الجوهر رجل حابته الحياة وهو يرى أن الاستمتاع بالحياة هو خير ما فيها ، وبالرغم من أنه فى بعض الأوقات يلمح الحياة المثالية ويشعر بها شعوراً غامضاً ، ويعبر عن ذلك فى أشعاره فإنه برغم ذلك : يفهمها ولم يعشها ، وأنا على نقيضه ، فإنى فى الجوهر متحمس ، ومعنى ذلك أن المثل الأعلى يلهمنى ويستاثر بى إلى حد أننى على استعداد لأن أقدم حياتى له ، بل هو يغرينى بأنه أجعله يستغرقنى ويحتوينى ، ولكنى تعلقت بمنع الحياة ، ووجدت فيها لذة وسروراً ، ومن ثم المعركة الرهيبة الناشبة فى نفسى بين عقلى الواضح الذى يوافق على استمتاعى بلذات الحياة ويرفض التضحية بالنفس ويعدها حمقاً وسخفا ، وحماستى التى تشتد وتقوى وتأخذ بأكظامى وتحاول أن تدفعنى دفعا إلى عالمها القديم المنعزل» .

وعجب هينى من أمر نفسه فى لقائه لجيتى ، فقد ظل أياماً يفكر فيما يقوله لجيتى حين اجتماعه به ، فلما سنحت الفرصة وسمحت الأيام بهذا اللقاء لم يجد ألمع شبان عصره وأصدقهم عبقرية ما يقوله جيتى سوى هذه العبارة التافهة[2] «إن البرقوق الذى ذقته فى الطريق بين بناو ويمار هو ألذ وأشهى ما ذقته من هذا النوع» .

---

(١) راجع صفحة ٧٥ من كتاب وليم شار ا عن «حياة هينى وكتاباته» .

(٢) راجع صفحة ٧٦ من كتاب وليام شار ا عن «حياة هينى وكتاباته» .

وتحدث هينى عن جيتى فى الفصل الطويل والبحث الضافى الذى كتبه عن المدرسة الرومانسية ، ومن أقواله عن جيتى فى هذا المقال «كان جيتى يخشى كل كاتب فيه طرافة وله استقلال ، وكان يمجد ويمدح صغار المؤلفين وضعاف الكتاب ، ولقد أمعن فى ذلك حتى أصبح مدح جيتى لأى كاتب دليلا على أنه من الكتاب العاديين» .

ولكنه مع ذلك حينما عرض للخلاف بين أنصار شلر وأنصار جيتى فى هذا المقال لم يأخذ جانب أنصار شلر وقال «[1] إن المعجبين بشلر يمتدحون فى حماسة طهارة ماكس بيكولومينى وصفاء تكلا وبوزا وغيرهم من أبطال روايات شلر ، ومن ناحية أخرى يعيبون أخلاق فيلين ، وكيتشن وكلارشن وسائر بطلات جيتى وأبطاله ويعدونهم خارجين على الآداب ، ويقابل أنصار جيتى ذلك بالابتسام ، ويقولون إن أبطال جيتى وبطلاته لاشأن لهم بالأخلاق ، وإن عالم الفن لا يعبأ بالفوارق الأخلاقية ، والفن مثل الكون قد وجد لأجل نفسه لا لأجل الآداب والأخلاق ، وبالرغم من أن آراء الناس عن الكون تتغير وتنسخ فإن الكون نفسه يظل على حاله ، ولا يطرأ عليه أى تغيير ، ولذا يجب أن يظل الفن كذلك بعيداً عن التأثر بآراء الجيل المعاصر من بنى الإنسان ، ويلزم أن يظل الفن مستقلا بوجه خاص عن المذاهب الأخلاقية ، لأن هذه المذاهب تتغير كلما ظهرت ديانة جديدة ، وحلت محل المعتقد القديم» .

ويعلق هينى على وجهة نظر أنصار جيتى التى أطال فى عرضها عرضا نزيها وافيا بقوله «[2] إننى لا أقبل هذا الرأى بدون تحفظ ، ولقد أدى هذا الرأى بأنصار جيتى إلى أن يعلنوا أن الفن هو أسمى ضروب الخير ، وقد أغراهم ذلك

---

(١) صفحة ١٠٥ من كتاب «نثر هينى» .

(٢) صفحة ١٠٧ من كتاب «نثر هينى» .

بأن ينأوا بأنفسهم عن مطالب عالم الواقع الذى يجب أن تكون له المكانة الأولى» .

ويرى هينى «أن شلر استجاب لعالم الواقع والحقيقة أكثر من جيتى ، وأنه يستحق المدح من أجل ذلك وأن روح العصر هزت كيانه وصارعته وغلبته على أمره وأنه سار فى إثرها إلى المعركة وحمل علمها ، وقد تغنى بأفكار الثورة الفرنسية العظيمة ، وهدم حصن باستيل العقل ، واشترك فى بنيان معبد الحرية ، هذا المعبد الهائل الذى تأوى إلى ظله الشعوب ، وتلوذ بركنه الأمم وقد عنى شلر بالتاريخ وتحمس للتقدم الإجتماعى .

أما جيتى فقد أقبل على دراسة الفرد والطبيعة والفن ، وكان عدم اكتراثه نتيجة من نتائج تأثره بمذهب وحدة الوجود ، ومما يؤسف عليه أن هذا المذهب كثيراً ما يؤدى بمن يأخذ به إلى ترك الأمور تجرى فى أعنتها ، لأنه إذا كان كل ما فى الوجود شيئاً مقدساً فسواء أن يشغل الإنسان بالسحب أو بالجواهر القديمة وبالأغانى الشعبية أو بتشريح القردة !

ولذلك لم يحفل جيتى بمطالب الإنسانية ، وشغل نفسه بالتشريح ونظريات الضوء ودراسة النباتات ومراقبة السحب ! وحقيقة أن جيتى وصف بعض معارك الصراع العنيف لأجل الحرية ، ولكنه وصفها من الناحية الفنية ، فقد كانت الحماسة المسيحية بغيضة إليه ، وكان ينفر منها ويجتويها ، وهو لم ينغمس فى الفلسفة التى سادت فى عصرنا ، إما لأنه لم يستطع فهمها وإما لأنه خشى أن تفقده هدؤ النفس ، ولست أنكر قيمة أعمال جيتى الفنية ، وطرائفه الأدبية ، فهى تزين بلادنا المحبوبة كما تزين التماثيل الجميلة الحدائق ، ولكنها بعد كل شىء ليست سوى تماثيل ، وقد يعشقها الإنسان ولكنها ممحلة قحلاء» .

ويصرح هينى بأن ما ساءه وساء شباب ألمانيا فى كتابات جيتى هو عقمها ،

وتفرغ جيتى للفن وتأثيره الذى راخى من عزائم بعض الشبان ، وكان عقبة فى سبيل التجديد السياسى الذى كان لازما لبلادهم .

وقد هاجم المؤرخ الألمانى النقادة منزل جيتى هجوماً عنيفاً ، وأنكر عليه عبقريته ، وفضل عليه شلر ، ويقول هينى عن هذا الهجوم العنيف « [١] كنت فى ذلك الوقت من خصوم جيتى ولكنى مع ذلك لم تسرنى الخشونة التى أبداها منزل فى نقده ، وقد شكوت قلة الأحترام لجيتى التى انطوى عليها النقد ، وقلت إن جيتى برغم كل شىء هو ملك أدبنا ، وفى تناوله بسكين النقد يخلق بنا أن نعامله بالاحترام اللائق ، مثل الجلاد الذى كان عليه أن يطيح رأس شارل الأول ، فإنه قبل أن يقوم بواجبات وظيفته ركع إزاء الملك والتمس منه الصفح » .

ويعتذر هينى عن خصومته لجيتى بقوله « [٢] لم أكن مثل هؤلاء النقاد الذين استعملوا مناظيرهم المصقولة وادعوا أنهم رأوا كلفاً فى صفحة القمر ، فإنى لم استطع أن أجد عيباً فى أعمال جيتى الفنية ، وما حسبة هؤلاء القوم ذوو البصر الحاد كلفا فى وجه القمر هو غابات مزدهرة وجداول فضية ، وجبال شم وأودية باسمة ضاحية » .

ويرد هينى على الذين يفضلون شلر على جيتى بقوله « [٣] لا شىء أدل على الحماقة من انتقاض جيتى لإعلاء شأن شلر ، وقد جرت العادة أن يمدح شلر من أجل النيل من جيتى ، ألا يعرف هؤلاء النقاد أن هذه الشخصيات التى صورها شلر فى صورة مثالية أسهل فى الخلق وأدنى منالا من هؤلاء الكائنات الضعيفة

---

(١) راجع صفحة ١١٢ مج بتاب «نثر هينى» .

(٢) راجع صفحة ١١٣ من كتاب «نثر هينى» .

(٣) راجع صفحة ١١٣ / ١١٤ من كتاب «نثر هينى» .

الدنيوية التى يرينا جيتى لمحات عنها فى أعماله ؟ ألا يعملون أن المصورين العاديين يختارون فى أغلب الأوقات موضوعات مقدسة ويصورونها بغير إجادة ولا إتقان ؟ ولكن تصور فلاح له سنة منتزعة أو امرأة متقدمة فى السن كريهة المنظر يستلزم أستاذاً بارعاً فى التصوير ، وأعظم مزايا جيتى هى اكتمال أعماله الفنية ، فليست فيها أجزاء قوية وأخرى ضعيفة ، وليس فيها اختلاط وفرضى ، ولا تعصب لبعض الشخصيات ، وكل شىء يظهر فى روايات جيتى وتمثيلياته كأنه الشخصية الرئيسية ، وكذلك فن هومر وفن شكسبير .

وهكذا لم يستطع هينى أن ينكر على جيتى براعة فنه وعظيم مكانته فى الأدب الألمانى بالرغم من تمرده عليه ، وحسده له ، وضيقه ببعض الجوانب التى عدها جديرة بالنفور فى شخصيته ومسلكه وموافقه ، ولعل هذا من الأدلة الناطقة على فضل جيتى وعبقريته .